شعر عبد الصبور ... بين المعرفة والتجربة

بقلم ايليا الحاوي

ما برح بعض الادباء يلتزمون بدعوة خاصة في الاجتماع والسياسة ، وربما تمادوا بها حتى جعلوا يعنون بغاية الاصلاح على الغاية الفنية . ولقد قدر لنا ان نشهد جماعة من القوم يحتفلون بقصائد مما لا شفيع لها الا فضيلة الموضوع ، لانها تبتسر بمعان توافق هواهم وعقيدتهم .

ولعلنا اذا واجهنا واقع الاشياء ، تحققنا انه قلما تؤثر طبيعة الموضوع في خلود الادب . او لم نر الى تلك القصائد اللعينة او ذات الموضوع التافه كزلابية ابن الرومي وكرسي ما لرميه ، او لم نر الى هذه تنزع بالواقع الشائع الى واقع فني اسمى ، فتخلد ، بينما يسفح ويتردى قصص النهضة عندنا ، بالرغم من ازحامه بالارشاد والدعوات ؟ مثل هذه الشواهد تكثر في الادب العربي وفي الاداب الاخرى مما لا جدوى من الافاضة بذكره ، بل نكتفي بان نلتفت اليه بهذه الملاحظة ، حتى لا نلبث نفاضل المواضيع ، احدها على الآخر ، بغناه او طبيعته ، بل بقدر ما يشخص ويبرم فيه من معاناة الشاعر وحقيقته .

ولقد نشهد ، الى ذلك بعض الادباء ممن يلتزمون بما يعرفون في ذهنهم ، او هم يتحاملون للبحث فيه ، فيعمدون الى تقريره بقصيدة لا حرارة فيها ولا يقين . اينا لا يدرك فضيلة الخير على الشر ، والاصلاح على الافساد ، الا ان هذا الادراك يعجز عن اي يورى النفس بطور الذهول والخلق ، وانا مهما حاولنا ان ننظم مداركنا بشعر ، لن يكون عملنا الا تزويرا ، فلا قيمة لمعرفة نعرفها اذا كانت النفس لا تبالي بها .

فاذا تكبدنا على النظم تكبدا بما ندركه من امره ، يفتقد الشعر الاخلاص وبالتالي يفتقد ذاته . اما اذا لم نقتصر على معرفة الحق ، بل تواقعنا فيه لنحقق رسالته فتعقد وارتبط بنفسنا حتى اصبح مصيره مصيرنا ، او على الاقل ، اذا ما لبثنا في لبس من امره ، اشكلت به نفسنا ، حينذاك تصبح العقيدة او الرسالة حرية ان تفيض بادب سوي ، لان الشاعر يتحدث فيها بحديث نفسه ، يجسد تجربة خبر اساها ونشوتها . فالقضية اذا قضية واقع نتعاطى به الفكرة ونعايشها ، حتى تصبح محور تعاستنا وسعادتنا . واذا اجتهدنا في التعبير عنها ، فكاننا نعبر عن مأساتنا في مأساة الحق ، او نتحدث عن مصيرنا في مصير تلك العقيدة . هكذا تخصب ذات الشاعر بانفعالات ورؤى ، وتنفذ به الى طور من التخطف والذهول تشرق فيه الصور ، او تؤدي الى انفعال خلاق وفق ما يرى برغسون ، يضفي على النفس بيقين تقتنع به اعصابنا قبل ان يعبث به عقلنا .

بيد ان الاخلاص قد ما يتحول الى آفة تهي بالشعر ، اذ يشتد وينزو في قوم عديمي الثقافة او ذوي ثقافة مكتفية ، تدعي العصمة دون ان تتجدد . ولقد طالما بصرنا بقصيدة تفيض حماسا لوتر وطني ، فتتحدث عن الشرف والبذل او تتغنى بمجد قديم او عتيد ، الا ان ذينك الحماس والحديث ليسا يكفيان وقد لا يجديان في الخلق ، وربما الفيناهما يشوهان بعنفهما تؤدة الصنيع واختماره في الضمير الفني . فلا مندوحة للتجربة من ان تكون مثقفة او الثقافة مجربة ، معناة ، دون ان نعي ونتضح علاقة الواحدة بالاخرى او اثر احداهما على الثانية ، وانما نشعر به في عصب ذائقتنا المبهمة . فالفن لكي يتكافأ وينفذ الى غايته ، ينبغي ان تزكيه الثقافة الانسانية التي تقرب بعض الشيء الى الفلسفة وان لم يكن لها حدودها وطقوسها ، فهي اشبه بالمعاناة التي تنتج من مضاعفات التجربة او ما يرسب في قاع نفوسنا ، غبّ القراءات والاحوال التي تختلف علينا ، فنكسب بها لنفسنا عمر النفس البشرية او على الاقل بعضه . ان حماس القروي الساذج ، او القوم السذج ، فيما تطأهم حمية الوطن او الرسالة ، يقدر بقيمته الوطنية . اما من الوجهة الفنية فلا قيمة له الا بقدر ما يشخص ويتفاعل فيه ، فضلا عن ذلك ، من ثقافة تسمو به عن بداوته وتربط مصيره بمصير الانسان الكبير .

الا ان الثقافة تلبث خطرا على الصنيع الفني الذي طفقت تراوده من الخارج . هناك فئة من الادباء تطالع آثار احد الفنانين الخالدين ، تستشف اصولها الفنية ، وتؤلفها في نظريات كمعارف باردة ، ثم يحاولون ان يحذو على غرارها بقصائد ذهنية لا رصيد لها في الضمير . الواقع ، ان الثقافة ينبغي ان تصقل الموهبة وتغني التجربة ، حتى اذا ارادت تلك الموهبة ان تتحقق ، تتحول الثقافة الى غذاء مبهم في جسد الصنيع الفني ، فتتصل النفس بحقائق نفسية لا قبل للشعور البدائي بها .

وهكذا نبصر ان السوية الادبية تقتضي ثقافة فنية وانسانية على من يخلص لتجربته ، واخلاصا على من قويت ثقافته ، تتحد جميعا في ذهول النفس حتى تفيض بصور الابداع . وكانما نشهد بعد ذاك الخطأ الذي يتردى به من يسمي هذه العملية بالالتزام ، لان لفظة الالتزام تفترض بمعناها غصبا للذات ، بينما تقوم هذه العملية ، في الواقع ، على فيض الذات دون اغتصابها .

وفقا لهذه المباديء نتولى ديوان صلاح الدين عبد الصبور، في تجربته فضلا عن وجهي ثقافته ، لنبصر اخلاصه ونجاحه في تحقيقها عبر وحدة نفسية متكافئة .

لعل اول ما يلفتنا في هذا الديوان ان بعض قصائده تطلع بمناجاة صديقة للشاعر ، غفل ، دون ملامح ، ليس يناجيها بما درجت عليه عادة المناجاة بين رجل وامرأة ، وانما يشكو لها اساه واسى رفاقه بمصيرهم ، فكانه ليس يلتقي بها على صعيد الحب بل على صعيد المجتمع والوطن .

ولا بد للقاريء ان يسائل هنا ويتحرى اذا كانت نفس الشاعر تطهرت وصفت ، حقيقة ، بما ييسر له مصادقة المرأة في انسانيتها دون جنسها . ولئن كان يسهل الحديث على هذا الامر فانه لا شك يعسر تحقيقه والتعفف به ، لان المرأة لا تنفك تراود المرء بخطيئة لا تكاد تستسلم ، حتى يستفيق شيطانها اشد اغراء وعنفا . فالى اي حد يمكننا ان نصادق الشاعر بتجربته في امرأة ماتت انوثتها بالنسبة اليه ، فلم يعد يناجيها بما يحبه او يعانيه منها ، بل بما يلقاه ويتخبط به في مصيره مع رفاق الجهاد ؟ لذلك يكاد يخيل الي ان هذه المرأة ليست سوى اسلوب خارجي في عادة القول ، والغنائية ، لا تلبث ان تمحي عن امرأة حقيقية في قصائد اخرى يمتزج فيها الشاعر بين الجسد والوجد . تسفر شهوته سفورها عند امريء القيس وموسيه وفرلين ومن اليهم ، ثم لا تعتم ان تصفو وتتوجد حتى لتغشاها عذوبة الحنين والبراح في شعر الرومنطيقيين وفرسان القرون الوسطى .

ولعل الفحش في شعر عبد الصبور ليس فحشا بل تفحش ينسحب به على ذيل احد الشعراء المعاصرين الذي اختص به واستنفده . فقصيدة « منحدر الثلج » تنسج على غرار المرأة كما عرفت في قصائد نزار قباني عامة وفي « طفولة نهد » خاصة . وللقاريء هذه الابيات الحاسمة :

اعانية الخطو قلبي يئن على رنة الخطوة العاتية ـ لكم اشتهي ان اعض التلال وافترش القمة العالية . اعانية الخطو كلت خطاك عن السعي للقبلة النائية ـ وبيتي هنا خطوة لليمين على الباب تعريشة ذاويه ـ انا عابد وثني الصلاة ولي من دمي قيم ساميه .. ـ فوا لهفتا ، كم احب التلال وكم اشتهي ان ارى عاريه .

فالعنوان والتعابير فضلا عن الصور بعضها لنزار وبعضها مقتبس او بالاحرى منسوخ عنه . الا ان الشاعر سرعان ما يجد نفسه في قصيدة « نزهة الجبل » حيث يتحدث عن المرأة الانسان التي تغشى نفسه بالحنين وتتخطفها بالبراح والذهول فيتحول شعره ، الى شبه حلولية بين الحب والطبيعة في ومضة نفسية مسرعة .

.« وفي لقائنا الاخير يا صديقتي وعدتني بنزهة على الجبل اريد ان اعيش كي اشم نفحة الجبل .. لكن هذا الطارق الشرير فوق بابي الصغير، قد مد من اكتافه جذع نخله عقيم ..»

فنفحة الجبل هي ، في الواقع ، نفحة حبيبته ، التبست عليه في فوضى وسرعة اللحظة النفسية التي يعبر عنها. فالشاعر يبدو هنا كفارس رومنطيقي ،او كبطل في اقاصيص ومسرحيات النهضة ، يقف الواجب والشرف بينه وبين حبيبته ، وان كان في نفسية عبد الصبور اسى بالوجود وتعقيد اكثر مما نبصره في ذينك الفارس والبطل .

ولا نلبث ان نشهد الشاعر في قصيدة لاحقة « رسالة الى صديقه » يستطرد في حديثه عن امرأة تقرب ملامح انسانيتها الى التي سلف الحديث عنها ، فهي ليست امرأة تصحبه في الجبهة والخندق، يرتديها وجه الملحمة هي ليست عبلة التي لا تعجب الا بعنتر الفروسية ، وانما هي القديسة المادونة ، التي يصلي لها الشاعر صلاته . وكما ان مدام دي ساباتيه ، ملاك بودلير ، تضيء في نفسه سبيل الجمال والخير ، تبعث في سقمه العافية ، وفي ريبته اليقين ، كذلك صديقة عبد الصبور ، فهي كمسيح الانجيل ، تنهض به من يأسه ، واغتماضه للموت ، تدب العافية في صديقها المحطم ذي القلب الكسير :

صديقتي ... انني مريض ، وساعدي مكسور ، ومهجتي على الفراش كل ساعة تسيل ، هذا الصباح ،ادرت وجهي للحياة،واغتمضت كي اموت، في هدأة السكون ، قد آن للشعاع ان يغيب ـ وطرقتين فوق بابنا .. موزع البريد !.. لا !! لا اريد . هل من مزيد ، يا حياة محنتي هل من مزيد؟ .. خطابك الرقيق كالقميص بين مقلتي يعقوب ، انفاس عيسى تصنع الحياة في التراب ، الساق للكسيح ، العين للضرير ، هناءة الفؤاد للمكروب ، المقعدون الضائعون النائهون ، يفرحون ، كمثلما فرحت بالخطاب يا مسيحي الصغير » .

هنا يبلغ عبد الصبور ذروة الصدق في التجربة لانه بلغ ذروة الصلاة ، فهو ليس يقبض احاسيسه ، يقيدها وفقا للسوية الخلقية ، او الوطنية وانما تفيض من نفسه وتتصعد كبخور الصلاة، ولعل الى مثل هذا الصدق يشير بعضهم عندما يقولون « الشعر صلاة »

الا ان هذه الحالة ، ليست تومض في شعر صلاح الا لحظة هاربة لا تلبث ان تغشاها العتمة ، فيعمى ، او يسير على هدى الآخرين ،فكما انه احتذى على غرار نزار قباني في قصيدتي : «منحدر الثلج والرحلة» نراه يتأثر وربما ينسخ نشيد الانشاد في قصيدة « اغنية حب » :

« وجه حبيبي خيمة من نور ، شعر حبيبي حقل حنطة ، خدا حبيبي فلقتا رمان ، جيد حبيبي مقلع من الرخام .. »

لست اود ان اعتقد بان الشاعر يدعي هذه القصيدة جديا وانما هي شيء من تقليد وربما مسخ لشعر الانشاد بما يعطل عبقرية الفن ، ويحوله الى المعابثة والتزويق .

اما قصيدة « سوناتا » فتتموج بين الرومنطقية في حنينها المبهم لتخوم غريبة ، وعالم غيبي جميل ، وبين الصنعة والمعرفة ، فيما نمته للحب ولعالمه من صفات عرفت في تقاليد الغزل القديم . الا ان الصنعة ليست تتعصى على التجربة ، وليست تضيرها لانها تنطوي على شجو داخلي وتحسس بعاطفة الاشياء والطبيعة ، حتى لا ندرك اذا كان الشاعر يحب حبيبته في الطبيعة او الطبيعة في حبيبته :

ولا تشغلي ... اننا ذاهبان ، الى قرية لم يطأها البشر ، لنحيا على

بقلها ، لا الحياة تضن علينا ، ولا النبع جف ـ ونصنع كوخا حواليه تل من الورد باحته،والسجف ـ ويا فتنتي سأمي رحلتي،وغربتنا المرفأ المنظر.

بيد ان عالم التخوم الجميلة ذاك ، لا يلبث ان تسفحه بشاعة الواقع يسعى به القوم في العبث واللاغاية . وهكذا نبصر الشاعر يعايش العالم الجميل في احلامه ، بينا يعش ويتردى ببلاهته وعقمه في الواقع . ولا يكاد يتخاذل وتطغى عليه شهوة العدم ، فيشارف على نهاية رينه وبيرون وفارتر، حتى يبصر حبيبته من جديد بين الزحام فيستعيد ثقته وايمانه بنفسه ولا يعود يحيا لحياة الناس والازدحام على البقاء التافه، بل يستضيء بحياةجديدة، ببعث جديدفتصبح حبيبته تمثل السعادة التي ، بها تجمل وتمتليء وتتكافأ الحياة .

وايقظني صاحبي يا (فلان) افق ، غمر النور وجه الوجود ـ ودوى القطار وماج الطريق ـ زحاما من الارض حتى السماء ـ يساقون والموت في مرصد ، لمعركة البله والاغبياء ـ لاجل الرغيف وظل وريف وكوخ نظيفوثوب جديد ـ وفي العصر شفتك يا فتنتي، ولم نفترق في الزحام البليد ـ وقبلت ثوبك يا فتنتي ، لانك انت رجائي الوحيد .

الا ان امرأة الوجد والبعث هذه لا تلبث ان تعقبها لدى الشاعر ، امراة التجربة والخطيئة ، التي لا ينفك نغمها يعزف في خاطره ، يدوي في سكينته ، ويعتريه بالظنون ، ولا يعتم ان يستحيل الى زوبعة نقمة وثورة اذ يرى نفسه مكبلة باصفاد الحياء والضعف يعجز عن ان يبوح لحبيبته بحبه ، يتحرق به مع اصحابه الذين ليس لديهم ما يشبع اودهم من عوز الغد.

« جارتي مدت من الشرفة حبلا من نغم .. ـ بيننا يا جارتي بحر عميق ...بيننا بحر من العجز رهيب عميق ـ القيت في رجلي الاصفاد مذ كنت صبيا ... انني خاو ومملوء بقش وغبار ، انا لا املك ما يملأ كفي طعاما ... ـ فاذكري زيته نور عيوني وعيون الرفقاء .. ورفاقي تعساء ، ربما لا يملك الواحد منهم حشو فم .»

فالشاعر ينفذ من التجربة الى تعليلها كظاهرة اجتماعية بين المرأة والرجل. فيستعرض نفسية الشاب الذي يعقد في نفسه لغز المرأة او بالاحرى عقدة الجنس يتجرر بها ، دون ان يجرؤ ان يواجهها وبالتالي ان ينتصر . وكذلك المرأة فهي دمية مرايا ولآليء ، تستنفد ايامها في التزين الخامل كانها قصرت حياتها على دور الانثى التي تتبرج لتغوي الرجل او بالاحرى لتغوي امير احلامها ، الذي تود ان تتناجى معه بما عرف من تعابير في كلاسيكية الغزل ، والفروسية . وهنا يلتفت الشاعر الى نفسه فلا يبصر نفسه ، اميرا بل فقير مملوء بقش وغبار ، يشاركه صحبه في عوزه اذ لا يملكون حشو فمهم بالرغم من اهتمامهم بتقرير المصير . لاشك ان صلاح يحتذي في هذه القصيدة على غرار البياتي في قصيدة « الحريم » . لكننا بالرغم من ذلك ، نكاد نبصر فيها وجها من وجوه نفسيته . فهو ليس يتحدث عن المرأة بما هي امرأة ، وانما بمشاكلها الاجتماعية . فاذا كان الفن تعبيرا عن هموم النفس ، فاننا نستدل بذلك على ان هم الشاعر ليس المرأة بل المجتمع . وبذلك نبصر حقيقة التجديد في الادب اذ تختلف مواضيعه وتتجدد باختلاف نظرة الشاعر للحياة ، باختلاف مثله العليا ، وبالتالي همومه. فلو كان الشاعر يرى الى المرأة كدمية للعبث ، لاتانا بغزل جنسي كغزل نزار قباني . الا ان نظرته اليها كمواطنة جعلته يتحدث عنها بفساد واقعها في مجتمع لا يفهم حقيقة رسالتها .

وهكذا نشهد ان الشاعر قدتصدق تجربته فيما يتحدثعما يعانيه منالمرأة ثم لا تعتم ان تغضب وتكاد ان تزيف ، عندما تصحبه او تطأه ، عبر عملية النظم ، اخيلة بعض الشعراء ، وتوجهه بعض الالتزامات الوطنية ، فيجارى السوية الخلقية على السوية النفسية ، اذ يداخل غالبا امر جهاده ورفاقه في حديثه مع حبيبته . كما اننا اذ نسلف هذا الرأي نتئد دون الجزم به ، لان نظرة الشاعر الى المرأة ليس تتكامل الا بتكامل دراستنا لشعره ، فهو لا يتحدث عنها مستقلة ، بل مرتبطة بنظرته للوطن والمجتمع وسائر قيم الوجود . انها وجه من وجوه معاناته الكبرى لعدم التكافؤ الاجتماعي الذي يؤدي الى ظلم القوى بالضعيف، الى تلون الحق بلون القوة ، وما الى ذلك من احوال ، تلابس اوصاف واسماء شتى ،تختلف ظاهريا وتتفق جوهرا في الدلالة على فساد الحياة وعقمها .

صلاح عبد الصبور

وتكاد لا تخلو قصائده من تلميح الى هذا الظلم والاغتصاب فهو آنا طائر اجدل منهوم ، وحينا طارق مجهول ملثم ، يومض في عينيه خنجران مسقيان بالسموم ، هو تارة تتري الدمار ، وطورا ذو الوجه الكئيب المستعمر . ولا يلبث هذا المغتصب ان يداهم اذاه فيتحول عن كونه تهديدا بالاغتصاب ووصفا له ، الى مأساة ، بل فجيعة اذ نراه يزرع الضحايا الابرياء في طريقه . فالطائر الاجدل يغزو طمأنينة وقناعة الطائر الصغير في عشه فيستحيل هذا العش الى مشهد من مشاهد المأساة الكبرى التي تعقد في نفس الشاعر عقدة الاسى بالوجود والتهالك فيه .

اما الطائر الملثم فيجثم على حياته يشغله بامر تقرير المصير عن سعادة الحب ووعوده ، فيعيش وحبيبته ينتظران نزهة الانتصار في الجبل بعد ان يواجها هذا الملثم ويحسما امر مصيرهم . ومن ثمة نبصر التتار يزحفون كلظى الجحيم، يدمرون مدينة الحضارة ، بينا يعود المستعمر يقتحم عليه بلاده وابناءها ، فيشنق زهران ويشج جبين ابيه ويدق الحديد على رأس اخيه .

هذا هو وجه المأساة التي يتردى بها الشاعر ، مأساة

تقصيه عمن يحب ، اذا كان محبا ، وتنقض على عش عائلته اذا كان والدا ، وتدمر مدينته وتستنزف موارده انسانا ومواطنا .

ولعل صدق تجربته يبدو هنا ، في انه يعاني مشكلة وطنه دون ان يعمد الى الدوي والرصاص وما الى ذلك ، من تعابير دنكوشوتيه ، ، يمتطيها بعض الشعراء ، ليوهموا جماعة القوم بصدق التزاميتهم . فعبد الصبور لا يتفجع ويرثي بلاده كأرميا ، ولكنه ليس يصلف ويستخفى مأساته ، كأبطال « كورنيه » وانما هو كفنييه ، يمثل مثل الانسان الحق، الذي يحزن ويأسى لكنه ينطوي على حزنه يتضمغه، بصمت واتزان :

« يا صاحبي اني حزين ، طلع الصباح فما ابتسمت ، ولم ينر وجهي الصباح ـ ، واتى المساء ـ في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في المساء لانه حزن ضرير ، حزن صموت .. حزن تمدد في المدينه ـ كاللص في جوف السكينة ، كالافعوان بلا فحيح ... »

هنا يبدو الشاعر مستسلما لحزنه ، لكنه ليس الحزن الصغير التافه ، بل حزن ذوي المصائر الكبرى عندما يعانون مصيرهم ، وتتحول بهم المصاعب الى التشاؤم والاسوداد .

« ما نحن الا نفضة رعناء من ريح سموم ، او امنية حمقاء، والشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم، او انا سمينا ببرج النحس كانا يا صديق».

ففي هذه الابيات يؤمن الشاعر ايمان ابن الرومي بكيمياء السعد والنحس ، ويشك كشك ابي العلاء وبودلير بنفسيهما، حتى ليخيل لهذا الاخير انه نغم شاذ في سيمفونية الاله الكبرى .

وسرعان ما يتحول تشاؤم عبد الصبور الى خطيئة اليأس. فلا تسعفه معرفته بأنه قادر على « ان يصنع الصباح وافراح الضياء » فيخفض رأسه ويبوح باستسلامه وترديه :

« اما انا فلقد عرفت نهاية الغدر العميق ، الحزن يفترش الطريق . » ويطالعنا الشاعر بمثل هذا الاستسلام في قصيدة « السلام » حيث يشيع جو اليأس والتهالك وفي قصيدة « الى الابد » حيث يخيل اليه ان حياته ستستنفد في دوامة السواد والبياض . هذه القصائد جملة يغلب عليها جو الاعتراف، فهي تطالعنا بوجه قائد خسر المعركة ، تشخص خيبته امامه ، كوجه حزين مسلول يفترش طريقه ابدا . في هذه المعاناة الصامتة تبدو انسانية الشاعر ، فهو يبتعد عن عنجهية الشعراء الذين يدعون الوطنية كما ادعى بنو اسرائيل الههم ، ينادونه بأفواههم وقلوبهم بعيدة عنه ، يبتعد عن هؤلاء ويبكي ، ولكن بدمعة ابي فراس العصية الخرساء ، ييأس ، لكن يأسه يأس المؤمن الذي يفتقد نعمة ربه وليس يأس الكافر الفار ، الذي يتحول يأسه الى عبث بالقيم وتنكر لها . وهو لذلك ليس ينجرف بالحرية والشرف « كالدجال والقراد والقواد والحاوي الطروب » ، هو لا يبيع الحق بثلاثين من فضة الشهوة والمصالح وانما يأسه وخطيئته ، كخطيئة بطرس ، الذي ينكر الحق ثلاثا ، لكنه لا يعتم ان ينهض ويصبح الصخرة التي تبنى عليها بيعة الحياة الجديدة :

« أماه قولي للصغار .. ، أيا صغار ، سنجوس بين بيوتنا الدكناء ، إن طلع النهار ، ونشيد ما هدم التتار » . او يقول : « اواحدتي وعرفت القلم ـ كتبت به احرفا شاعره ، ليعرف اخوتي الاصفياء، نشيد البناء ، الملك لك » .

وهكذا ينتهي من مراحل الهدم والتهدم ويشرع في البناء ، البناء المؤمن الرسول . ويطيب للشاعر في زهوه ان يسبق اماله في الطريق كما يقول نسيب عريضه، فيخيل اليه انه انتصر على المغتصب واذنابه وحاشيته :

« سيموت ذو الوجه الكئيب ، سيموت مختنقا بما يلقيه من عفن على وجه السماء ، في ذلك اليوم الحبيب ، ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء ، في موت ذي الوجه الكئيب .» او يقول : « اواحدتي، في المساء الاخير الوب الى غرفتي ، ويزحم نفسي انبهار غريب ، وانظر يا فتنتي للسماء ، ومن بابها الذهبي الضياء ، يضيء الدجى بانهمار النجوم ينور في وجنتيها السلام ، وتصدح اجراسها بالفرح ، وافرح يا فتنتي بالحياة وبالارض ، بالملك ، الملك لك ».

وهكذا يبدو ان عملية الاصلاح لدى عبد الصبور ، صيرورة تمد وتجزر بين اليأس والفشل ، تتكامل كما تتكامل حياة الاولياء بالمجاهدة والتموت . فبين رغبته بالاصلاح وتحقيقه لها يشخص جحيم النفس التي تباشر اصلاح ذاتها دون تبجح وتذيع . فشعره لذلك شعر تجربة يعاني فيه مأساة الاصلاح وتمزقه كما شعر بها المصلحون الذين يحملون على اكتافهم عبء الانسانية جميعا .

الا ان صلاح لم يلزم شعره بنفسه على ابناء الشعب، وانما أفاض في وصف هؤلاء يصلحهم آنا بالسخرية المضمرة وآونة بالاشفاق والرهبة ، وغالبا بهذه جميعا كما في قصائد « الناس في بلادي » « زهران » و « الملك لك » .

ولعل قصيدة السندباد هي اولى القصائد التي توضح هذه المحاولة اذ نبصر فيها الشعب من خلال اعماله واقواله. فالسندباد يمثل فضلا عن حب المغامرة نداء المجهول الذي ينبغي ان يحر الانسان ليدرك حقيقته ، فلا يكتفي المرء بأن يعيش دون ان يسعى لاكتشاف الاسرار التي تحيط بعيشه، لا يقتنع بما جرت عليه عادة الاشياء ، وقناعتها المبتذلة ، لا يكتفي بالاستمرار التافه فيغرس كرمة ونبيذا ويتناسل، كما يعيش في غريزة الاشياء ودوامتها المبهمة ، بل ينبغي ان يتخطى ذلك فلا يعود همه هم العيش ، بل هم عيشه وما وراءه ليحيا في حقيقة الاشياء ، دون عادتها . اما الشعب فقلما يصحب سندباد العقل والمجهول في مغامراته ، واذا قدر له شيء من ذلك ، فاننا نراه يهوم ابدا في فلسفة ساذجة لا ترى بهجة الحياة وغناها بل شؤمها وباطلها في موت الانسان ومبارحته الدنيا دون امواله وذويه . ولقد وفق الشاعر في اثارة جو هذه الفلسفة وتشخيصها في تصوير عزرائيل الشعب ذي الدفتر الصغير الازلي ، يدون فيه الارواح التي سيدحرجها الى الجحيم ، فهذه الفلسفة العدمية الساذجة بالاضافة الى ايمانهم بالقدر ، يجعلهم يتقاعدون عن السعي لكسب حياتهم ، فكيف بتجديدها وبعثها او المشاركة بحضارة الانسان ؟! فلا عجب ان يبصر الشاعر هؤلاء يتهالكون ويستحيلون الى جماعة من الذين

يرتدون جلباب الكتان القديم، جلباب البساطة والعقم، يبلون الجوع دون ان يتحفزوا للثورة ، يلبثون على سذاجة الله والقدر ، بينما يستبد بهم المستعمر مع حاشية الدجالين والقرادين الذين يبيعون القيم بمال او بوظيفة ونفوذ . هكذا يستمر جماعة الشعب يحلمون بما يريدون ان يحققوا من رفاهية ونعمة وفقا لما شاع في اساطير الف ليلة وليلة « بقصر مشيد وحورية في جوار السرير ومائدة فوقها الف صحن ، » يحلمون بهذه دون ان يسعى احدهم للثورة الا الفتى خليل الذي يرفع يده الى السماء ، معلنا ثورة الجيل الجديد العتيدة . لكن الشاعر لا يعتم ان يشهد امه تجاري نفسيتها نفسية الشعب ، تداويه بالتعاويذ ، تدربه على تقاليد المعيشة ، حتى ينزع العمى عن عينيه فجيعته بأخيه وابيه اللذين شج رأس احدهما الاستعمار ، بينا غز الحديد على رأس الثاني . وشد ما يتميز غيظ الشاعر عندما تلبث امه ، ويلبث القوم بالرغم من الفجيعة وتلك الجرائم، يدعون ويتضرعون بقدرة مبهمة ، يدعونها حينا القدر واحيانا القضاء او يتعاوذون بأسماء الانبياء ومن اليهم . وكأنما اراد عبد الصبور ان يشير الى عبث الشعب بمفهوم الدين، واتخاذه على غير حقيقته حتى يتحول الى خدر تتخدر به كبرياؤه وطموحه . وهكذا تصبح اسماء الاولياء والقديسين رموزا لتهرب الشعب من مواجهة نفسه والتخفي وراء اشياء ابتدعها وهمه ، ليتخلص من وطأة نفسه، وهكذا ايضا نبصر سخرية الشاعر تمتزج بالنقمة ، وتهكمه تشوبه المرارة فلا يدع وجها من وجوه هذه المهزلة الا وتصدى له حتى يخيل الينا ان وراء هذه المهزلة الصامتة، تكمن مأساة الانسان المعاصر ، فيصح فيها قول موسيه : « يا لها من مهازل لا نكاد نتضاحك لها حتى نبكي منها » اذن فمأساة الشاعر في احلامه المثالية التي تريد ان تبتني جنة الارض ، يسر بها ، فكرة او شوقا يراوده ،حتى اذا نفذ الى الواقع رأى ان تحقيق احلامه يصعب وربما يستحيل ، فيشعر بالخيبة بين الحلم والواقع ، خيبة من فقد جنته وفردوسه الحقيقيين . فمأساته ليست كمأساة ابن الرومي الذي تعصّى عليه التكافؤ مع عصره ليكتسب خبز البقاء ، وانما مأساته كمأساة المرسلين الذين يفشلون في بث دعوتهم وتحقيقها . لذلك نرى شبح الاسى واليأس يهومان باسودادهما على قصائده، حتى ليخشى الشاعر ان يواجه الصباح ، لانه يخشى ان يواجه احلامه وحقيقته التي تتداعى وتستحيل امام صعوبات الواقع :

« نزح الماء ولم ازل احيا بأحلام النيام ، ارد النهار بمقلتي سأمان من هول الزحام ، ماذا علي لو انعطفت لغرفتي .. حتى انام ـ واغوص في بحر السلام . النور عملاق يزلزل هدأتي .. ويهد امني ويريني المهوى العميق لرحلتي ، فيريع ظني ، يا ليل يا راحي ومصباحي وافراحي وكني ابعد رماح النور عني!..»

فالنور يزلزل هدأته كالحقيقة لانه يطلعه على الجحيم العميق الهوي لرحلته ، فكأن طريقه طريق الجلجلة . هنا يتمنى الشاعر ان يغمره الظلام بسلام النوم ليتروح من وطأة نفسه . فهو ليس يستسلم كالرومنطيقيين ويطلب راحة الموت ، وانما يطلب النوم ، اي مهلة يستريح فيها ليعود ويواجه الحقيقة والحراب التي تتصدى لطريقه المعذب الشريف . ولعل بودلير اشار الى هذه المحنة في قصائده التي سماها « الاسى والمثل » المثل التي يحياها في جنة الذهن والاسى ، اسى الواقع الذي يسفحها ويحيلها . فتجربة عبد الصبور بذلك تجربة صادقة لانها تعبير عن عقدة المثل في نفسه لم يفتعلها بارادة بل تعقدت فيها بالرغم منها كتعقد الحياة او بالاحرى لغز الحياة الذي يورى النفس بحرة المجهول .

*

الا ان تجربة عبد الصبور بالرغم من اختلافها على مواضيع عديدة ، فهي لا تعدو ان تكون متوحدة متشابكة يستظل الموضوع الواحد فيها ظلال سائر المواضيع فتمتزج وتتآلف حتى ليستحيل علينا ان نتبين حدودها . فالمرأة هي وجه من وجوه نظرته للمجتمع ، وكذلك الشعب والمصير فهي جميعا متآخذة ، متلاحقة تومض احوالها في نفسه كملامح مختلفة بحقيقة نفسية واحدة ، تتخبط به في نزوعه من الانسانية البشعة الزائفة الى فردوس الانسان المتكامل .

اما ثقافة التجربة ، وهي لا تقل اهمية في سوية الاثر الفني عن التجربة ذاتها ، ان هذه الثقافة تترجح في شعره ، فبينا نراها تفتقد في قصيدة حتى لتهيض وتسف ، اذا بها تومض في صورة او في فلذة قصيدة اخرى حتى لا تكاد تتكافأ . فلو اتخذنا قصيدة « اغنية صغيرة » التي يتحدث فيها عن الحق الذي يجانب القوي على الضعيف لالفيناها تقوم جوهرا ، على فضيلة حكاية شعبية ابتذلت لكثرة التداول. فهو يصور طائرا قويا ينقض على طائر صغير مما يجري ابدا على السنة الشعب وحكمته . الا ان الشاعر لم يدع هذه الاقصوصة السافرة ، وانما حاول ان يغير ملامحها ، فاستضاف عليها بعض التفاصيل ، وحولها الى مشاهد مسرحية ، في الفة الطائر الصغير مع اليفته ، وحنانه على وحيده الزغيب ، فاستخفى ملامح القصة ليوهم القاريء بالجدة والابتكار ، وليموه عن عجز ثقافته في الاتصال بحقائق الانسان الخفية . وكذلك القول عن قصيدة « شنق زهران » التي تقص قصة شاب حر هصره الاستعمار . ليس في هذه القصة اخيلة او عمق تأويل وانما هي قصة لا يعدر جوهرها الخبر الصحفي الشائع او حكاية الالسنة في الاندية والمجالس ، اعتمدها الشاعر دون ان يقوى على نقلها من واقعها الشائع الى المظاهر الفكرية التي تنكفيء وراءه ، مما لا يبدو لطبيعة العقل الساذج . لذلك تسلط عليها ، يموهها ويطليها بالغموض لتلتبس القصة وتعمى ، فيتوهم القاريء الجدة في الغموض ، طفق يكسو الحادثة والمعنى بصور نفسية حتى يفتقد المعنى هويته القديمة ويتزور في هوية لا يلبث ان ينكشف زيفها . فهو لا يقول ان زهران احب ، بل يداور ويراوح هذا المعنى ، فيزعم ان زهيرة خضراء لكثرة ماء الحياة ، حمراء التاج ،

ـ التتمة على الصفحة ٤٦ ـ

شعر عبد الصبور ... بين المعرفه والتجربه

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٨ ـ

نمت في قلبه . فتخايل انه ثقف المعنى ، فيما نماه الى الزهرة الخضراء والتاج الاحمر ، لكنه في الواقع اسبغ عليه زيا جديدا لا مجديا دون ان يتيسر له بعمق التأويل ، يستمده من عمق ثقافته . واننا لنشعر غبما نتلوه ، بتعمد الشاعر وكده في تصوير المعنى ليخلع عليه جدة الصور او تمويهها . نستدل من ذلك جميعه ان الشاعر فيما يعييه التحسس بجذور التجربة ، يقنع معانيه باقنعة الصور الذهنية الخارجية فيأتي برسوم خرساء لا رصيد لها في النفس .

الا اننا قد نشاهده يفتض عقم الاشياء والظواهر ، فيستطلع مما وراءها معاني ونظريات ليست تشرقالا في الفن المثقف . فالشاعر ليس يمثل السندباد في خرافة السفينة المبهمة ، بل ينفذ مما شاع عنه من مغامرات الى الاصول النفسية التي تقررها ، فلا يعود السندباد يمثل طرافة المصير ، بل طفرة الانسان الهارب من دوامة نفسه ، وراء المفاجأة والاكتشاف ، يتروح به ، ويستطلع حقيقته من حقيقة الوجود . وقد نعثر على عمق التجربة ايضا في قصيدة « بحر الحداد » لانها تعتمد على القرارة النفسية . كذلك نبصر الشاعر يوشك ان ينفذ من حدود المعرفة الشائعة ،، الى فهم جديد في قصائد الطفل ، الحزن والسلام ، فضلا عن الناس في بلاده .

لكن هذه الثقافة ليست متمالكة وليست تفيض او تشرق اشراقا كما نراها عند كبار الشعراء وانما تستضيء بضوء شاحب يخالج ويكاد ان يعمى ، فكأنه فيما تعقد بنفسه عقدة التجربة ، يلبث يتخبط بها ، دون ان ترفده ثقافته لتجتمع له صيرورة الانسان المعاصر ، الا انه وان قصرت ثقافته عن افاضة التجربة ، فان كثيرا من الاختبارات الفكرية والحياتية ، تتراءى من خلال الصور التي تكسو معانيه ، تتآخذ وتترافد ، في غفلة الحدس حتى يتوفر شعره بومضات عميقة المعاناة والتجربة :

« واتى المساء ، في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في المساء لانه حزن ضرير ، حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم ،حزن صموت، والحزن لا يعني الرضاء بان امنيه تموت ، وبان اياما تفوت ، وان مرفقنا وهن ، وبان ريحا من عفن ، مس الحياة فاصبحت وكل ما فيها مقيت » او يقول : «جارتي مدت من الشرفة حبلا من نغم .. نغم كالنار يقلع من قلبي السكينة ، نغم يورق في نفسي ادغالا حزينة »

... وكذلك في القصيدة الاولى من الديوان : »

« الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير ، ويطلق الظنون في فراشي الصغير ، ويثقل الفؤاد بالسواد ، ورحلة الضياع في بحر الحداد .»

وثمة قصيدة الطفل في الديوان التي يتجلى فيها عبد الصبور تجليا ، فتصدق تجربته وتصفو ثقافته وتتبلور صوره ، فلا نعود نبصر وطأة النظريات والاشخاص عليه

الا ان مثل هذه القصائد وتلك الصور تندر في شعر عبد الصبور ، وتلبث القصيدة تتموج بشريط من الصور التي يخيل الينا اننا نعرفها في مشاع الصور وان كنا نعجز ان نسترجعها الى اصل غير اصلها . لذلك يمكننا ان نقول ان شعر عبد الصبور لا يقوم على فضيلة العمق في التجربة والصور وانما على فضيلة الاخلاص غالبا وجدة الموضوع المتأتية من جدة نظرته الى الحياة . فهي لذلك لا يمكن ان نقطع بانها ليست شعرا كما اننا لا يمكننا ان نرضى بها كشعر خالد سوي نطل به على قمم العالم والخلود وانما هي تترجح بين ذينك الحالين ، تشرق فيها لحظة حدس خارق فتنفذ الى الذروة في بيت او صورة وينطفيء حدسها غالبا فتتهالك وتسف .

*

واننا ، بعد ، وان تعرضنا لانسانية التجربة واخلاصها ومن ثمة لملامح الثقافة فيها فلسنا ندعي بذلك ان هذه العناصر تنوجد متفاصلة في النفس وانما تومض جميعا ، عبر غفلة مبهمة في حالة لا حدود فيها او استقلال وتفاصيل ، ولا يعدو ان يكون عملنا في عزل هذه الملامح ، احدى عن الاخر ، تواضعا نميز فيه بعض مميزاتها لنفضي منها جميعا ، الى فهم عام لمميزات الحالة الداخلية . فحري بنا بعد ان بصرنا بملامح التجربة ان نتعرف لكيفية نقله غيب النفس الى شكل فني ظاهر

*

لعل اسلوب الشاعر في هذا الشأن يقوم على فضيلة الصور المتطاردة ، تتلاحق في الذهن كالارقام والاعداد في معادلة علمية . وليس هذا الاسلوب مما ابتكره عبد الصبور وانما قد استفاده من تجارب الشعراء الاجانب الذين جعلوا يراودون التجربة فيما هي حالة تومض في النفس ان تتحول الى فكرة ذات استقلال وخلود . فالشاعر ينذهل عما في خاطره لئلا تستقر التجربة وتتواعى معانيها في تدرج منطقي يفهمه العقل فيشوهه ويميته . ولقد افضت في الحديث على هذا الشأن في مناقشة سابقة (الآداب مايو ١٩٥٧) مما لا جدوى من تكراره وانما اكتفي بان اشير هنا الى واقع غفل عنه بعض شعرائنا ممن انضووا لهذا الاسلوب . ان الصور المتطاردة او هذه الملاحظات النفسية التي تتابع كشريط من الاضواء ، لم تكن وفقا لما بصرنا منها عند جدها الاكبر « رانبو » ، خواطر تتجامع وتتواتر كارقام علمية ، فالشاعر ليس يقيم معادلة التجربة بتلك الصور الارقام ، وانما هي في غيب نفسه المبهمة تشرق ملامحها متآلفة

وليست متلاحقة ، تفيض فيضا وليستتتدرج في منطق كاذب مملول . فالعيب الفني ليس يتفق مع التعداد لان التعداد عملية ذهنية منطقية ، ليستتقبض على ظلاله واضوائه وما يتموج بين هذه وتلك من حقيقة الشعور الذي تبرم فيه حقيقة النفس وبالتالي حقيقة الانسان . فالشعر عبر تخطفه واشراقه ، ينبغي ان ينثال انثيالا كالضوء من الشمس ان يفيض فيضا كالينبوع من معدن الارض. اما اذا قبض وتقسط بافكار وصور فانه يتعطل ويجف . ولا جدوى من الاسراع في ملاحقة الصور ومشابكتها تعطيل ما بينها من اسباب منطقية ، لان الصورة عندما تلحق برفيقتها لا تعدو ان تكون في الواقع لحاق فكرة بفكرة او ادراك بادراك وبالتالي منطق بمنطق. ولئن كان جماعة هذا الاسلوب الغربيون تنكروا لكل ملامح المنطق الواعي، فان مقلدي هذا الاسلوب عندنا ، غصبوا واو العطف ، على الدلالة المنطقية، لكثرة ما تتردد في البيت الواحد ، حتى كأن الشعر يقوم معها على تنظيم الصور وفقا لنظام كرونولوجي ، لا جذوة فيه . ولعل عبد الصبور يحتذي حذو البياتي الذي نجد واو العطف في شعره تقف كخلية ميتة تمنع تصرف الحياة وتآخذها بين اعضاء الجسم الحي . والى القاريء هذا المقطع من قصيدة « هجوم التتار » :

هجم التتار ، ورموا مدينتنا العريقة بالدمار ، رجعت كتائبنا ممزقة .. وقد حمي النهار ، الراية السوداء والجرحى ، وقافلة موات ، والطبلة الجوفاء والخطو الذليل بلا التفات ، واكف جندي تدق على الخشب ، لحن السغب »

ففي هذا المقطع نرى الواو يطغى جرسها ويشتد حتى يتحول نغم القصيدة فضلا عن احوال التجربة ، الى وتيرة واحدة ، تخالج وتنازع حتى تستنفد شوق القاريء للاستطلاع ، وتتحول فضلا عن ذلك الى عبء يطأه . واننا دون ان نذكر هؤلاء بالحكمة القديمة التي ترى ان البلاغة تقوم على حسن قطع ومواصلة الجمل ، نؤكد لهم ان هذه الواو توهمهم بالانتصار لكنه في الواقع انتصار سهل حتى كأنه الانكسار ، يسهل ان نجمع اشلاء التجربة في ذهننا ، نعاطفها بواو عييه، لكنه يصعب ان نستكمل الصورة في وحدة تفيض فيضا او تنتشر انتشاراً ، وليست تتعاور دفعة وراء دفعة ، كلما اتصلت بحرف مميت لا دلالة له ولا ظلال . وشد ما يتخذ عبد الصبور هذا الاسلوب عندما يحاول ان يوحي الجو النفسي الداخلي بملامح خارجية في البيئة وما اليها . فيطفق يطارد الصور الواحدة وراء الاخرى كانما يخيل اليه انه يتعوض بسرعة دورانها الخارجي عن ذهولها الداخلي ، وربما اعتقد ان الصورة اذا مرت سريعة على جدقة الذهن ليست تطبع فيه وانما تطبع ظلا لها او اثرا منها ، وهكذا اذ تتوالى هذه الاثار بسرعة على حدقة الذهن تعمى هذه الحدقة ، وتلتبس على ذاتها وتقع في الذهول ، الا ان هذه النظرية ليست تصح في واقع العملية الفنية اذ تأتي الصور مفككة تعمي الذهن دون ان تذهله ، لان تفكيكها يعطل فيها الحياة وبالتالي حرارة التجربة :

« امي .. انت بسفح ذاك التل بين الهاربين ، والليل يعقد للصغار الرعب من تحت الجفون ، والجوع والثوب الشفيف ، والصم والسعلاة والظلماء تقعي في الكهوف ، اترى بكيت لان قريتنا حطام ..؟»

فهو هنا يصف جو الرعبة والخوف الذي يستبد باللاجئين الهاربين بسفح الجبل فيصف عيون الصغار والجوع والعري واصوات حشرات الليل ليعقد في نفسنا مشهد الصورة او خطوطها الكبرى ويدع لنا ان نتملى ظلالها واجواءها ، هذا الاسلوب الصوري المتدارج ، قد يوهمنا ويوهم صاحبه بصدق العملية الفنية ، لكنه ليس في الواقع الا تخديرا او تهربا منها لانه تعداد ذهني يبتعد عن التجربة ليشاهد خطوطها الكبرى الناتئة التي تعدم الظلال والاهداب . واننا يسهل علينا ان نتصرف لوصف حالة نفسية بنطف من الصور الذهنية ، فأمثل الفرح النفسي ، بصباح ابيض تشرق اضواؤه على جنائن خضراء تصدح فيها الايكة ، بين الضوء والعبير ، الا ان عملي هذا لا يعدو ان يكون معادلة كيمائية او حسابية لا عصبية فيها ولا معاناة . وايسر لنا اذا تحول الشعر الى هذا العبث الخارجي ، ان نقيم لكل حالة من احوال النفس معادلتها المقننة فيكتفي الشعراء من عناء الكد وراء صيرورة شعرهم الذاهلة . الشعر كالحياة، حدوده ابعد من حدود المنطق والفلسفة، لانه ليس يتسلط على النفس ليفهمها ، وانما هو النفس فيما تعاني وتحقق ذاتها . وكل ارادة او ادراك يتسلط به على النفس يعطل حقيقتها ويصبح كالعقل والمنطق قيدا يقيدها من الخارج . الفلسفة تسعى الى تفهم النفس . اما الشعر فيسعى الى ان يتعمق ويتملى تجربتها لذلك كان التعداد والابتسار والتجزيء تمثل جميعا مثل المعرفة والاخفاق .

وقد تشخص في العملية الفنية ظاهرة خارجية اخرى في تلك الصور التي لا نشاهدها او نشاهد اشباهها في الواقع وانما كانت تنشر الويتها في خيال بعض الشعراء الاجانب الذين اغرقتهم همومهم الفنية في غيبوبة دائمة كغيبوبة الانبياء ، لذلك جعلنا نبصر في شعرهم صورا تقرب بغرابتها الى صور « الابوكلبس » او رؤيا يوحنا ، تفيض في تلك الرؤى الغامضة التي تساكن اذهانهم من جراء تعطل حواسهم الواعية وتداخلها بعضا ببعض . واننا بعد درسنا لشعر عبد الصبور الفينا تجربته تذهل بعض الاحيان ، لكن لا تلبث ان تختل حواسه وتفيض بمثل هذا الهذيان الصوري ، لذلك لست ادري الى اي حد يمكننا ان نعتقد ان الصور التالية مفاضة من اعصابه لا من ذاكرته : « ومشى الحزن الى الاكواخ تنين له الف ذراع ، كل دهليز ذراع . »

او هذه الصورة : « عيناه خنجران مسقيان بالسموم والوجه من تحت اللثام وجه بوم» فهذه الصورة متعمدة معدة سابقا في الذهن ، بعد ان اقتبست عن صور «الابوكليبس» كما اقتبست صور « اغنية حب » عن نشيد الانشاد ،لذلك فهي تتموج بين نبوءة رؤيا يوحنا ، وغرابة خيال شكسبير واختلال او جنون اعصاب ادغار الن بو ، لكنها تخرج ابدا

عن السياق الصوري القريب المتناول الذي يغلب على قصائد عبد الصبور .

ولقد افتض عبد الصبور الى ذلك ، تقليد الصوت الواحد في القصيدة الذي كان جرى عليه عمود الشعر القديم ، فجعل يداخل الاصوات ويخالفها كما أنه طفق يعتمد على التعابير الشعبية يجريها ضمن اسلوبه ليحرره من وثنية العبارة وذهنيتها فيقوى على تلمس حقيقة الشعب من خلال تعابيره ، فكما اننا نبصر زهران من خلال تصرفاته في شراء العمامة الخضراء ، كذلك نلمس مراسيم عرسه في التعابير الشعبية اذ يقول :

« كان يا ما كان ان زفت لزهران جميله ـ كان يا ما كان ان انجب زهران غلامه .. وغلاما كان يا ما كان ان مرت لياليه الطويلة . »

الا انه لم يستطع ان يلاحم ويؤالف هذه الصور لتنسجم مع روح تعابيره .

وثمة ظاهرة الميثولوجيا التي كانت شاعت في ادب مطلع القرن الثامن عشر ، يتحدث فيها الشعراء باشواقهم في اشواق اشخاص الاسطورة اليونانية والرومانية . ولقداستعاد المعاصرون هذه الميثولوجيا ، لكنهم لم يستغرقوا في خيالها الاسطوري بل استمدوا الاسس الفكرية والنفسية التي يشير اليها يتخذونها كتقية لافكارهم وتجاربهم . فهم يستمدون مواضيع شعرهم او معانيه من الاسطورة فيخصبونه ويضفون على واقع نفوسهم روعة الواقع الاسطوري ويقينه .

وايا ما كانت الحال ، فان هذه النزعة ليست تجتدي الشاعر الا اذا شحذت تجربته ثقافة عميقة تنفذ من ظاهر الاسطورة الى جذورها الفكرية النفسية . ولقد اعتمد عبد الصبور هذه الظاهرة في قصيدتي « السندباد » « والناس في بلادي » فاغنى تجربته بعض الشيء . الا ان تعطل النغم في تعطل القافية غالبا ، واستماتته في عقم الشجو الداخلي ، حولا هاتين القصيدتين وغالب قصائده الى شبه معادلة محيرة ، لها ملامح الشعر دون حقيقته ، وكنت اود ان افيض في حديثي عن الموسيقى في شعر عبد الصبور الا انني آليت ان اتوفر لها بمقال مستقل لاحق لخطورة البحث وتعقيده من الناحية الفنية .

*

وبعد ، فانه يتضح لنا من ذلك كله ان صلاح الدين عبد الصبور شاعر يحاول ان يخلص في تجربته فيوفق ببعض الصور الفنية وبعض التجارب ، لكن معرفته بنظريات الفن والحياة ، جعلت تطأه من الخارج ، بعض الاحيان ، فلبث تترجح قصائده بين المعرفة والتجربة ، تصفو فيه بعض فلذات ، ويتردى سائره في وتيرة شائعة او في عقم النظرية والمعرفة .

ايلي الحاوي

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
بيروت - ص.ب ٣١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

تعلن عن صدور منشوراتها الجديدة :

الى حضرات اساتذة ومدراء المدارس المحترمين في لبنان والبلدان العربية الشقيقة

قبل ان تقرروا كتبكم للسنة الدراسية المقبلة اطلعوا على السلاسل المدرسية الآتية :

سلسلة الجديد في القراءة العربية ٧ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)
سلسلة الجديد في الأدب العربي ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي (البريفه والبكالوريا)
السلسلة القصصية لطلاب الأدب ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة التربية الصحية في المدارس ٢ جزآن لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة الاشياء والعلوم الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية ٦ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH COURSE
سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR
سلسلة لتعليم القراءة الفرنسية ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANÇAIS
سلسلة الخطوط العربية الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم الخط الانكليزي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
NEW SCRIPT AND CURSIVE HANDWRITING
سلسلة لتعليم الخط الافرنسي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
LA NOUVELLE CALLIGRAPHIE FRANÇAISE

هذا ما نقدمه لكم عاجلا ايها الحضرات الاساتذة والمديرين والمربين الافاضل ... رجاؤنا ان تجدوا فيه ما يساعدكم على المهمة التعليمية الملقاة على عاتقكم ... وفقنا الله واياكم الى ما فيه خير الناشئة

تاريخ العلامة
ابن خلدون
ظهر الجزء الحادي عشر وهو بداية المجلد الثالث